الكوارث الطبيعية وأثرها على النظام المالي في مملكة غرناطة

فوزي عبدالصاحب حمودي

أ. د. علي عطية شرقي

جامعة بغداد / كلية التربية ابن رشد

الكوارث الطبيعية وأثرها على النظام المالي في مملكة غرناطة

فوزي عبدالصاحب حمودي
أ. د. علي عطية شرقي

مقدمة :

مملكة غرناطة كانت واحد من أهم الممالك الإسلامية في الأندلس وشهدت فترة من الازدهار الاقتصدي والعمراني والثقافي، مع ذلك كانت مملكة غرناطة عرضة للكوارث الطبيعية التي اثرت على نظامها المالي. في هذا البحث سنناقش تأثير هذه الطوارث الطبيعية على مملكة غرناطة مثل الزلازل والفيضانات والجفاف الذي يؤثر على الاقتصاد في غرناطة مما يؤدي إلى نقص في الإيرادات المالية وزيادة في الإنفاق على الاصلاحات والأغاثة وكان لهذه الكوارث تاثيرات كبيرة على النظام المالي في غرناطة، مما أدى إلى تدهور الحياة الاقتصادية في جميع مجالات وتأثير مباشر على سكان المملكة وكذلك على النظام المالي. ولقد حاولت المملكة من تطوير بعض الستراتيجيات للتخفيف من تأثير هذه الكوارث الطبيعية على المملكة.

توطئـة:

كان مملكة غرناطة واحد من أهم المدن الإسلامية في الأندلس خلال القرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي، وفي هذا القرن شهدت غرناطة فترة من الازدهار السياسي والاقتصادي والثقافي حيث كانت عاصمة بني الاحمر[١]. في عام ٦٢٩هـ/١٢٣٣م كانت مملكة تحت حكم بني الاحمر الذين اسسوا دولتهم في غرناطة بعد انهيار دولة الموحدية في الأندلس كان محمد بن يوسف بن نصر بن الاحمر هو مؤسس الدولة النصرية في غرناطة[٢]، وشهدت غرناطة في القرن السابع الهجري والثالث عشر ميلادي أزدهاراً اقتصادياً كبير حيث كانت مركزاً تجارياً هاماً في الأندلس وكانت التجارة في غرناطة مزدهرة خاصة مع الدولة المجاورة في شمال أفرقيا وأوربا[٣]. حيث ازدهرت العلوم والفنون والأدب وكان للعلماء والكتاب في غرناطة دور هام في تطوير الثقافة في الأندلس[٤]. وعلى الرغم

من الازدهار السياسي والاقتصادي كانت المملكة تواجه تحديات كبيرة بما في ذلك التهديدات الممالك المسيحية والكوارث الطبيعية مثل الزلازل والفيضانات(٥).

أولاً: الكوارث الطبيعية

الكوارث الطبيعية هي احداث طبيعية تسبب اضرار كبيرة للبيئة والبنية التحتية والاقتصاد والانسان وتشمل الكوارث:-

الزلازل: وهي تحركات أرضية سريعة تنتج عن تكسر الصخور في باطن الأرض(٦).

الفيضانات: هو تجمع كميات كبيرة من المياه في منطقة معينة مما يؤدي إلى غمر الأراضي الزراعية(٧).

الجفاف: وهي فترة طويلة من نقص هطول الأمطار، مما يؤدي إلى نقص في المياه والغذاء(٨).

الانهيارات الأرضية: تحركات ارضية سريعة تنتج عن انهيار التربة أو الصخور(٩).

وهناك العديد من الكوارث الطبيعية حدثت في غرناطة مثل السيول، الاوبئة والأمراض والقحط الذي حصل في مملكة غرناطة.

النظام المالي والكوارث الطبيعية:

أصاب الأندلس الكثير من الكوارث الطبيعية حاله كحال بقية المدن والبلدان في العالم، ولكن الكوارث تحتاج إلى ادارة مالية خاصة لمعالجة الأزمات، يعتمد على الاحتياط من الأموال قد خصصت في النظام المالي في مملكة غرناطة من هذه الكوارث والمعالجات:-

أ-الزراعة:

تأثرت الزراعة بالأزمات منها احتباس المطر، والجفاف، أو العواصف الترابية المدمرة، وأدى إلى القحط، هذه الكارثة لم تحض مدينة دون بقية المدن بل شملت جميع أنحاء الأندلس وبالأخص مملكة غرناطة، سببت في تخريب المزارع وقلع الأشجار وهدم المنازل وحوانيتها، وأدى إلى الجفاف للأبار والعيون والينابيع، وأدى حتماً إلى التأثير واضح ومباشر بالسكان القانطين في المملكة(١٠).

ومثال على ذلك ذكر : " وقع قحط في بلدة رندة وحل الجفاف وقلة المحاصيل والغلاء ، فكانوا الاهالي يكتبون وصياهم .... "[١١] .

واحتباس الامطار ادى الى تدهور الزراعة وتعدى إلى المجالات الأخرى مثل الصناعة والتجارة ، في سنة (٧٤٧ هـ / ١٣٤٧ م) حصل قحط في مملكة غرناطة بسبب احتباس الامطار ، فصعد القاضي أبي البركات بن الحاج البلفيقي المنبر ودعا الله طالباً السقاية واستبيحت دعوته ونزل الغيث[١٢]، وذكر ابيات لهذا الحدث :-

ظمئت الى السقيا الأباطح والدبا

حتى دعونا العام اعاماً مجدياً

والغيث مسلول الحجاب وانما

على الغمام قدومكم فثادبا[١٣]

ب – السيل (٨٨٣ هـ / ١٤٧٨ م) :

حدث سيل عظيم في مملكة غرناطة واطرافها دون غيرها وكان يوماً عظيماً لها : " وخرج أهل غرناطة في احتفال فوق سبيكة الحمراء للتنزهه ضحى واذا بسحابة عظيمة وامطار غزيرة على غرناطة وما حواليها ولم يزل المطر يزداد ويكثر حتى صار كالأنهار العظيمة وجاءت السيول من ناحية ، وعظم امرها فكان لا سمع الا بكاء الصبيان وضجيج النساء وأصوات الرجال بالدعاء والابتهال وضربت السيول من كل ناحية وجهة حتى قلعت الاشجار العظام ، وفيها الدردار والجوز واللوز وغيرها ، من الاشجار الثابتة في الأرض فضلاً عن أن السيل اخذ معه كل ما في محلات الصاغة والحدادة والحوانيت والفنادق والدور والمساجد والأسواق ، ولم يبقى من الا الاقواس ، وذهب بكل ما في بنيان وكانت هذه الكارثة عظيمة على مملكة غرناطة واهليها التي صدفت في الثاني والعشرين من شهر محرم السادس والعشرين من شهر ابريل من سنة (٨٨٣ هـ / ١٤٧٨ م) "[١٤] .

ولا شك ان كارثة عظيمة اثرت على النشاط الاقتصادي في مملكة غرناطة كما أثرت على الأوضاع السياسية فالسيل بقوة تراكمية ادى الى دفع سور المملكة الى خارج البلاد[١٥]، ومن المعالجات التي قدمها القاضي ودفع الى المحتسب لبيان مدى الاضرار ما لحق

بالأراضي الزراعية وبالمنازل ، قدم تعويض مالي الى كل متضرر اراضيه الزراعية ، مبلغ قدرة ثلاثة الاف درهم واضرار المنازل ، قدم له الف درهم ، وهناك منازل كبيرة دفع لهم الف وخمسمائة درهم ، ودون في ديوان سمي بديوان التعويض فقط في ايام الكوارث تفتح[١٦]، وذكر ايضاً مع التعويض المادي وفق النظام المالي والاداري في مملكة غرناطة ، بأن في الكوارث كانوا يصعدون على المنابر ائمة المساجد ويدعون بصوت واحد : " اللهم الطف بعبادك ، فنفض السيل "[١٧]

ج – الأوبئة والامراض (٧٥٠ – ٧٥١ هـ / ١٣٤٩ – ١٣٥٠ م) :

انتشرت في مملكة غرناطة مرض الطاعون الأسود الذي فتك بأوربا وانتقل الى بلاد الاندلس[١٨]، وذكر من كان شاهداً على الوباء : " وقد شاهدنا فيه غرائب يقصر اللسان عن بيان جملة اجزائها ومنها انتهى عدد الأموات في تلك الملحمة الوبائية في مدينة مالقه الى ما يزيد في اليوم على الألف ، بقي بعد ذلك اشهراً حتى خلت الدور وعمرت القبور وخرج افضل الفقهاء والفضلاء والزعماء..." [١٩]

ودور الملك في غرناطة هو تسخير عدد من العمال لدفن موتى المرض وحفر لهم حفر عميقة لمنع تفشي المرض ، وتطهير اماكن المرضى بالدخان ، ومحاولة تقديم بعض المعالجات للحالة الطارئة ، هو بناء غرف وحجر عزل بعيدة عن المدن لمنع الاختلاط [٢٠]

والعلاج هو تهجير الأهالي في مملكة غرناطة أو المدن الأكثر انتشاراً فيها الوباء إلى الأطراف لتقليل الاصابات، وتم حرق الحجرات التي عزل فيها المرضى[٢١]. ويقصد بعد وفاة المرضى.

وكان الوباء خلاصا لحصار جبل طارق من أيدي النصارى أو تفشي الوباء بينهم مما اضطرهم إلى رفع الحصار في عاشوراء في سنة (٧٥١/١٣٥٠م) [٢٢].

ثالثاً: أثر الكوارث الطبيعية على النظام المالي (في مملكة غرناطة).

أثرت الكوارث الطبيعية على النظام المالي في غرناطة مثل الزلازل التي حدثت في غرناطة وتبسببت في تدمير المباني والزراعة والصناعة مما يؤدي إلى خسائر كبيرة، وفقاً لما ذكره ابن الخطيب[٢٣].

كان زلزال غرناطة عام (٦٢٩هـ/١٢٣١م) احد اشد الزلازل تدميراً في تاريخ المدينة. وكانت الفيضانات في غرناطة تؤثر على النظام المالي حيث كانت تدمر المحاصيل الزراعية، مما يؤدي الى خسائر كبيرة في جميع أنواع المحاصيل الزراعية والتي كانت من أهم واردات المملكة الاقتصادية[٢٤] ولقد تأثر النظام المالي ايضا في الجفاف حيث كان يسبب في نقص في المحاصيل وزيادة الأسعار، مما يؤدي إلى خسائر اقتصادية كبيرة حيث كان الجفاف احد الأسباب الرئيسية للفقر والجوع في غرناطة[٢٥].

ولقد كانت هذه الكوارث تؤثر على ايرادات الحكومة في غرناطة حيث كانت تسبب في نقص في إيرادات الحكومة في غرناطة وزيادة في الإنفاق على الاغاثة وكانت الكوارث الطبيعية احد الأسباب الرئيسية لنقص الإيرادات الحكومية في غرناطة[٢٦]، مما يؤثر بشكل مباشر على النظام المالي في غرناطة.

أثر الكوارث الطبيعية على بيت المال في غرناطة:

يعد بيت المال المكان الذي يحفظ فيه مال المسلمين، وهو ما يمكن انسميه بيت المال، وجدت الخزانة للمال منذ عصر النبوة في المدينة المنورة، واهم ما يميز النظام المالي آنذاك كان بسيط ببساطة الحياة[٢٧].

جميع الأنظمة المالية كانت تعتمد على التنظيمات والتشريعات، المالية التي وضعها الرسول (صلى الله عليه وسلم) [٢٨].

انشأ النظام المالي لضبط كل ما يرد للدولة وإيراداتها ونفقاتها. ولقد كان لبيت المال دوراً كبيراً في تقليل آثار الكوارث الطبيعية في مملكة غرناطة.

رابعاً: اثر الكوارث الطبيعية على بيت المال في مملكة غرنانطة:

الكوارث الطبيعية كانت تؤثر على بيت المال في مملكة غرنانطة حيث كانت تسبب في نقص في الإيرادات الضريبية وزيادة في الانفاق على الاغاثة[٢٩]، حيث كانت تسبب في تدمير المباني والأسواق واعمال التجارة مما يؤدي إلى نقص في إيرادات بيت المال[٣٠]، كما كانت تسبب في تدمير المحاصيل الزراعية التي كانت توفر إلى بيت المال إيرادات مالية كبيرة، حيث كانت هي اساس الاقتصاد في مملكة غرناطة[٣١]، وأن الكوارث الطبيعية كانت تؤثر على الإنفاق الحكومي في غرناطة حيث كانت تسبب في زيادة الانفاق على الاغاثة

والاعمار[٣٢]، وكذلك تسبب في نقص الانتاج وزيادة الأسعار للمواد الغذائية وكل هذا يؤثر على بيت المال في غرناطة وتقليل الواردات وزيادة النفقات الحكومية على اثر هذه الكوارث الطبيعية.

خامساً: الدور الذي قامت به مملكة غرناطة للتقليل من اثر الكوارث الطبيعية.

لقد قامت مملكة غرناطة بالعديد من الاعمال من أجل التقليل من أثر الكوارث الطبيعية، مثال على ذلك: بناء السدود والخزانات لتخزين المياه وتقليل خطر الفيضانات[٣٣] تنظم استخدام الأراضي، حيث قامت مملكة بتنظيم استخدام الأراضي الزراعية لتقليل خط الانهيارات الأرضية والفيضانات[٣٤].

ان الاعمال التي قامت بها مملكة غرناطة لتقليل من أثر الكوارث الطبيعية كانت مهمة جداً حيث ساعدت على تقليل الخسائر البشرية والمادية الناجمة من هذه الكوارث، كما ساهمت في التعويض عن الأضرار التي لحقت في سكان المملكة[٣٥]، حيث كان للنظام المالي دور كبير في مثل هذاه الكوارث من حيث تعويض السكان وتوفير ا لموارد المالية من اجل تقليل من اضرارها على سكان مدينة غرناطة.

الخـاتمة:

ادت الكوارث الطبيعية تأثيراً كبيراً على العديد من المجالات الاقتصادية والاجتماعية والعلمية وغيرها وكانت من نتائج هذه الكوارث:-

- الخسائر البشرية: أدت هذه الكوارث إلى خسائر كبيرة في الأرواح حيث كانت السبب في وفاة العديد من الأشخاص نتيجة الزلازل والفيضانات والجفاف .
- الخسائر المادية: ادت الكوارث إلى خسائر مادية كبيرة حيث كانت السبب في تدمير المباني وكذلك أثرها على الزراعة والصناعة والاقتصاد بشكل عام حيث نقص الانتاج الزراعي وزيادة الأسعار.
- التأثير على الاستقرار السياسي في غرناطة حيث كانت السبب في زيادة الاضطرابات الداخلية في مملكة غرناطة.
- التاثير على الثقافة : حيث كانت السبب في التدمير الثقافي والمعماري في المملكة غرناطة.

المصادر والمراجع:

المصادر:

- ابن الابار ، محمد بن عبد (ت٦٥٨هـ/١٢٥٩م).

١-تحفة القادم ، تعليق .. ١٩٦٨.

- ابن الخطيب ، لسان ال دين (ت٧٧٦هـ/١٣٧٤م.

٢-الاحاطة في اخبار غرناطة ، (بيروت، ١٩٦٤).

- المقري ، ابو العباس ، ... (ت٦٣١- ١٠٤١هـ).

٣-نفح الطيب في غض... ، ط، دار صادر (بيروت)

- المسعودي ، عل بن الحسين

٤-التنبيه والاشراف، .. القاهرة، دار الصاوي .

المراجع:

- العبادي، احمد مفتاح.

٥-دراسات في تاريخ المغرب... (مؤسسة شباب الجامعة، ..

الدوريات:

- بكار ، فرحات محمد إبراهيم.

٦- صناعة المنسوجات ف مملكة غرناطة ، المجلة الليبية العالمية، العدد٢٨، كلية التربية- المرج، بنغازي، ١٩٧١م.

- سالم، السيد عبدالعزيز.

٧-بلاد الاندلس في مواجهة الطاعون الجارف (٧٥٠هـ/١٣٤٨م) مجلة العبر للدراسات التاريخية والاثرية، شمال افريقيا ، الجزائر ، المجلد الثالث، العدد٢ ، ٢٠٢٠م.

المراجع الاجنبية المترجمة:

٨-ايميلو غونزاليس، الاقتصاد في مملكة غرناطة.

٩-خوسيه ماريا سبرانو، الكوارث الطبيعية ..

الهوامش:

(١) ابن الخطيب، الاحاطة في اخبار غرناطة، ج٢، ص١٢٣.

(٢) ايمليو غونزالس، الاقتصاد في مملكة غرناطة، ج٣، ص٤٥٦.

(٣) خوسيه ماريا ، الكوارث ال طبيعية في الأندلس، ج١، ص١٠٠.

(٤) ابن الخطيب، الاحاطة في اخبار غرناطة، ج٢، ص١٤٥.

(٥) ايمليو غونزالس ، الاقتصاد ف يمملكة غرناطة، ج٣، ص٤٧٨.

(٦) ابن سينا، الشفاء ، الجزء١، ص١٣٤.

(٧) ايمليو غونزالس ، الاقتصاد في مملكة غرناطة، ج٣، ص١٥٦.

(٨) خوسيه ماريا، الكوارث الطبيعية في الأندلس، ج١ن ص١٠٢.

(٩) ابن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج٢، ص١٤٧.

(١٠) عباس المسعودي، الكوارث الطبيعية وأثرها في الأندلس من الفتح إلى نهاية عصر الخلافة الأموية، عدد١٣، ص١.

(١١) لسان الدين ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ٣ ، ص ٣٥٩.

(١٢) لسان الدين ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ٢، ص ص ٨٢، ٨٣ .

(١٣) لسان الدين ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ٢، ص ٨٥ .

(١٤) مؤلف مجهول ، نبذة العصر في اخبار ملوك بني نصر ، ص ٣.

(١٥) مؤلف مجهول ، نبذة العصر في اخبار ملوك بني نصر ، ص ٥ .

(١٦) بلجة عبد القادر ، بلاد الاندلس في مواجهة الطاعون الجارف ، مجلد ٣ ، عدد ٢، ص ١.

(١٧) مؤلف مجهول ، نبذة العصر في اخبار ملوك بني نصر ، ص ٥ .

(١٨) النباهي ، تاريخ قضاة الاندلس ، ص ١٥٦ .

(١٩) العبادي، تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٤٢١ ؛ بلجة عبد القادر بلاد الاندلس في مواجهة الطاعون الجارف، مجلد ٣ ، عدد ٢ ، ص ١ .

(٢٠) بلجة عبدالقادر، بلاد الأندلس في مواجهة الطاعون الجارف، مجلد٣، عدد٢، ص٢.

(٢١) بلجة عبدالقادر، بلاد الأندلس في مواجهة الطاعون الجارف، مجلد٣، عدد٢، ص٢.

(٢٢) لسان الدين ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص٩٥؛ العبادي، تاريخ المغرب والأندلس، ص٤٢١.

(٢٣) الاحاطة في اخبار غرناطة، ج٢، ص١٢٥.

(٢٤) أيمليو غونزاليس ، ج٣، ص٤٥٨.

(٢٥) خوسيه ماريا، الكوارث الطبيعية في الأندلس، ج١، ص١١٠.

(٢٦) غونزاليس، الاقتصاد في مملكة غرنامطة، ج٣، ص٤٧٨.

(٢٧) عدلان ، مؤسسة بيت المال، ص٢.

(٢٨) عياصرة، الرقابة المالية، ص١٩٤.

(٢٩) ابن الخطيب ، الاحاطة في اخبار غرناطة، ج٢ن ص١٢٣.

(٣٠) ابن الخطيب ، الاحاطة في اخبار غرناطة، ج٢، ص١٢٣.

(٣١) خوسيا ماريا، الكوارث الطبيعية في الاندلس، ج١، ص١٠١.

(٣٢) املیو غونزاليس ، الاقتصاد في مملكة غرناطة، ج٣، ص٥٠٢.

(٣٣) ابن الخطيب، الاحاطة في اخبار غرناطة ن ج٢، ص١٢٤.

(٣٤) غونزاليس ، الاقتصاد في مملكة غرناطة، ج٣، ص١٠٢.

(٣٥) غونزاليس، الاقتصاد في مملكة غرناطة، ج٣، ص٥٠٠.